الحياة الادبية فى الحجاز

للأستاذ أحمد أبو بكر إبراهيم

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

ظل حال التعليم هكذا حتى تولى أمر الحجاز عاهل الجزيرة العربية الملك عبد العزيز فعمل جاهداً على نشر الثقافة فى هذه البلاد لتسار النهضة القوية فى البلاد العربية الشقيقة ، وقد استطاع فى هذه الفترة الوجيزة من الزمان أن يخلق فى الحجاز جواً علمياً حديثاً يغبط عليه الحجاز الآن فهو يبشر بمستقبل قريب محقق .

والذى يدعو إلى الغبطة أن التعليم الأساسى (الأولى) والتعليم الابتدائى قد أديا رسالتهما فى الحجاز فى المدن على الوجه الأكمل حتى إنك لتجد الكثرة القاهرة من البنين والبنات فى هذه المدن يجيدون القراءة والكتابة ، فإذا نحن تجاوزنا هذا النوع من التعليم إلى ما هو أرقى منه وجدنا ابن السعود يجاهد فى إحيائه ويعمل على نشره ليخرج من الحجازيين صفوة صالحة تبنى الحضارة الجديدة على أسس صالحة قوية ، وقد عارض فى هذه السياسة الحازمة الرشيدة فى بادئ الأمر المعارضون من أهل نجد ، ولعل جلالة الملك قد لقى فى هذا الصدد ما لاقاه محمد على باشا فى بداية النهضة المصرية حينما كان يحمل الناس على التعليم حملا فيلاقى منهم انصرافاً وإعراضاً .

ومن ثم صار فى الحجاز فى العهد السعودى مدارس ثانوية متعددة تسير مناهجها على غرار المناهج المصرية وتعد الطلبة للتحاق بالجامعتين المصريتين ، ويقوم بتدريس بعض المواد فيها أساتذة مصريون ليوحدوا بين الثقافتين ويؤلفوا بين الاتجاهين حتى إذا ما وفد الطلبة الحجازيون إلى مصر وجدوا أنفسهم بين إخوان لهم قد اتحدت ثقافتهم وتقاربت مداركهم .

وفى الحرمين الشريفين الآن تدريس للعلوم الشرعية واللسانية يتبعض به علماء مصريون وحجازيون ونجديون وعلماء من شنقيط ويسير التدريس فيهما على نظام الحلقات حيث يلتف الطلبة حول أساتذتهم يستمعون إليه وهو يلقى درساً فى الحديث أو التفسير أو الفقه أو النحو والصرف . وهذا اللون من التعليم يكاد يكون عاماً شاملا لأهل مكة والمدينة ، وينتظم فى الحلقة الواحدة الكثير منهم على اختلاف أسنانهم وتباين أعمالهم ؛ فتجد تلميذ المدرسة بجانب التاجر أو العامل قد أصغى كل واحد فى اهتمام إلى ما يلقيه الأستاذ فى وقت الفراغ من العمل . والجميل فى هذا النوع من التعليم أن الحجازى لا يحجم عن الانتظام فى سلكه مهما تقدمت به السن ، وهو كذلك يتعلم رغبة فى العلم ، وطلباً لإدراك أسراره ولا يريد من وراء ذلك عملا ولا شهادة .

والنقص الظاهر فى علوم الحرمين خلوها من الآداب فليس من بينهم من يتصدى لتدريس النقد والسرقات أو تاريخ الأدب والنصوص حتى يأخذ بيد المتعلمين إلى فهم الأدب وتذوق أسراره ومعرفة مواطن الجمال فيه .

ومن هنا نستطيع أن نقول إن التعليم على اختلاف أنواعه فى الحجاز يخرج علماء حفظة ، ولا يخرج أدباء قادرين .

فكيف إذاً استطاع أدباء الحجاز أن ينهضوا هذه النهضة وأن يبلغوا هذه المنزلة فى الشعر والنثر ؟

إن الفضل الأكبر فى ذلك راجع إلى الاطلاع الحر والمجهود الذى يبذله الأديب معتمداً على نفسه فى قراءة الكتب التى تحلو له وتتفق وذوقه . وهذا المجهود ملحوظ ظاهر فى ناشئة الحجاز إذ لا يكاد الطالب فى المدارس الابتدائية وغيرها ينال قسطاً من التعليم حتى تتوق نفسه إلى الاستزادة من الأدب العربى والثقافة العامة الواسعة ، وغاية ما يأمل الشادى فى الأدب منهم أن يستطيع بعد القراءة الدائمة أن يصل إلى نظم الشعر ليلقى فى المحافل أو كتابة النثر فى الجرائد فإذا ما وصل إلى هذه الغاية تجددت له آمال أخر فواصل القراءة ودأب على التحصيل حتى يصبح من الشعراء المعدودين فى هذه البلاد .

هذا الروح وهو الاطلاع الحر ولده فى الحجازيين إكبارهم لماضيهم وعنايتهم بمجدهم السابق وأملهم الواسع العريض فى أن يعود ذلك المجد قوياً ثابتاً كما بدأ فى هذه البلاد ، فقد علموا أن أقرب طريق يوصلهم إلى بغيتهم إنما هو طريق الاعتماد على النفس فى استيعاب الآداب القديمة والحديثة والمعارف المنقولة إلى لغاتهم

ولعل الذى مهد لهم سبيل الاطلاع ، فراغهم فى كثير من

الأوقات ، وبخاصة فى غير موسم الحج — عندئذ يجدون عندهم الوقت متسعاً للاستزادة واستيعاب ما حوته الكتب . وثمة سبب ثالث هو خلو بلادهم مما يشغل الناس فى الأقطار الأخرى من شروب اللهو ومفاتن المدنية ؛ فأعمال الحجازى مقسمة بين العمل والعبادة والتعلم .

والكتب التى يطلع عليها الحجازيون كثيرة متنوعة : فهم يقرءون الكتب العربية القديمة ليتأثروا صياغتها وأساليبها ويجدون هذه الكتب هناك فى المكتبات العامة التى احتوت على كثير من الكتب وبعضها فريد نادر ، وهم كذلك مولعون بشراء ما يطبع منها فى بلادهم وفى الأقطار الأخرى .

غير أن عنايتهم بالكتب الحديثة تفوق عنايتهم بالكتب القديمة ؛ فهم يقرءون كل ما يصدر منها فى مصر والشام والعراق وأمريكا وإقبالهم على هذه الكتب بالغ حد الإعجاب ؛ فلا تجد هناك شادياً فى الكتابة ولا بادئاً فى الشعر إلا وهو يعلم عن أدبائنا المصريين ما يجهله كثير من المصريين المتعلمين ، ثم هو يحيط بإنتاجهم ومؤلفاتهم إحاطة وافية ويدرك منازعهم وطرائقهم : فليس منهم من يجهل مؤلفات الدكتور طه حسين بك ، والدكتور هيكل باشا ، والأستاذ العقاد ، والأستاذ أحمد أمين بك ، والأستاذ « الزيات » ، والدكتور زكى مبارك وغيرهم . بل ليس منهم من يجهل أسلوب كل واحد من هؤلاء وخصائصه والموضوعات التى أجاد فيها وهو يحدثك عن كل أديب حديث الواثق الملم بما يقول . ولا تقف معرفتهم هذه عند حد الإعجاب بالأدب : فهم يختلفون إزاءه أحزاباً ؛ هذا يفضل أسلوب الزيات لرواته ورونقه ، وبراعة تصويره ؛ وذلك يفضل أسلوب العقاد لدقة تعبيره ، وتسلسل معارفه وقوة حجته ، وآخر يتحيز لأسلوب الأستاذ أحمد أمين بك لعمق الفكرة والاستقصاء ، والدقة فى الأداء ، وغيره يؤثر أسلوب الدكتور طه حسين بك معجباً بسهولته وتجليته للحقائق . وهكذا ، وقد يتخذون من أدب هؤلاء وغيرهم مجالا للنقد والتحليل فتزخر صحفهم ومجلاتهم بنقدهم الأدب المصرى . وما قلناه فى تأثرهم بالأدب المصرى نرى مثله فى تأثرهم بالأدب الشامى والعراقى ، وأدب المهجر بأمريكا .

ولكن أى هذه الآداب أشد تأثيراً فى أدب الحجازيين ؟ يقول الدكتور هيكل باشا : « إن عنايتهم بالأدب المصرى تفوق عنايتهم بالآداب الأخرى » .

وهذه العناية التى يذكرها هيكل باشا لم تكن إلا فى السنين القليلة الأخيرة حينما فاقت مؤلفات المصريين مؤلفات غيرهم فى بلاد الحجاز وحينما راجت صحفهم هناك ، ولكن الأساس الذى بنى عليه الحجازيون أدبهم والمعين الذى استمدوا منه مناهجهم إنما هو أدب المهجر ؛ ولذلك نراهم إلى الآن متأثرين أشد التأثر بأساليب هذا الأدب وطرائقه وإن مالت طائفة منهم إلى اتباع طريقة المصريين وفى بيان هذه الحقيقة يقول الأستاذ أحمد العربى : « أما أدب اليوم فهو وإن كان أدبا فنيا ما زال فى الطور الأول من أطوار نموه ونضوجه ، فهو ماض فى طريقه إلى الأمام ، سائر بخطوات ناجحة موفقة لا يسع المنصف تجاهلها أو الغض من شأنها . ويرجع الكثير من الفضل فى ذلك إلى آثار أدباء العربية المصريين التى تجاوب صداها فى الشرق العربى فكان لها أحسن الأثر فى توجيه الأدب العربى وتلقيحه بلقاح الحياة والطرافة والتجديد ، وقد كان أثر أدباء المهجر من السوريين أقوى وأظهر فى أدبنا الحديث حتى عهد قريب . أما الآن فقد بدأ يتحرر قليلا من قيود التقليد وأخذ يستد ساعده وإن كنا نجد لنفثات أقلام الأدباء المصريين أثراً متميزاً فى هذه العنوات الأخيرة » ومع أن ثقافة الحجازيين لا تعدو الثقافة العربية ، لأنهم لم يختلطوا بالأوروبيين كما اختلط غيرهم إلا أنهم فى العهد الأخير قد استطاعوا أن يستوعبوا الكثير من ألوان هذه الثقافة استيعابا يغبطون عليه : فهم يقرءون الكتب المترجمة عن هذه اللغات ، وهم يقرءون إنتاج المتأثرين بالثقافات الأجنبية من أدباء مصر والشام والعراق وأمريكا فى شوق وعناية ، وقد استطاعوا بإطلاعهم الحر على هذه الثقافة أن يثبوا وثبة فكرية موفقة بدت آثارها فيما يكتبون ويشعرون .

وإلى عهد قريب لم يكن لتعليم اللغات الأجنبية نصيب فى مناهج التعليم الحجازى ، فأحس الأدباء حاجتهم إلى معرفة هذه اللغات ليتصلوا بالنهضة المتوثبة فى بلاد الغرب . ويعبر عواد عن هذه الحاجة قائلا : « كم هى شديدة حاجتنا فى الحجاز إلى اللغة الإنجليزية خصيصاً وإن عليها لمعولا ضخما فى استعمال العلاقات